المخطوطات العربية مصدرا من مصادر المعرفة

أ. عصام محمد الشنطي(*)

مدخل

حين جاء الإسلام إلى الجزيرة العربية، كان عموم الناس فى أُمّيّة فاشية، وكان الرسول الكريم أُمّيًا كذلك، بمعنى أن الكتابة فى العرب كانت قليلة، ولم يكن أحد يكتب بالعربية، حيث جاء الإسلام إلا بضعة عشر نفرًا(1).

وكانت معارفهم، فى العصر الجاهلى، محدودة، تدور حول الشعر والنثر والخطابة والأمثال، وبعض أخبار أسلافهم. كما كانت متصلةً بمتطلبات بيئتهم ومعايشهم، كدرايتهم ببعض مظاهر الفلك والنجوم التى تعينهم على السَّير فى هديها، عند قطع الصحراء والفيافى.

ولم يكن العرب فى جزيرتهم منقطعين عمَّن حولهم من الأمم. وفى مصادر التراث العربى من مخطوطات أن أهل الحجاز كانت تجارتهم الداخلية نامية، فيما يقيمونه من أسواق ومواسم، وتجارتهم إلى الشمال والجنوب أمرًا معروفًا. ويؤكّد هذه الصلة بأطراف بلادهم، والأمم المجاورة، ما وصل إلينا من أخبار مبثوثة فى المخطوطات، من مثل حارث بن كلدة الثقفى الذى تعلم الطب وضرب العود بفارس واليمن(2)، واللذين ذهبا من الطائف إلى جُرش فى اليمن ليتعلما بعض الصناعات العسكرية كالدبابات والمجانيق وغيرها(3).

على أن الوثبة الواضحة، والدفعة القوية، ظهور الإسلام، وتشجيعه على القراءة والكتابة. فلم تمض بضعة عقود، إلا قد تهيّأ للأمة بوادر تقدّم، فانتشرت الرغبة فى التعلم قراءة وكتابة انتشارًا سريعًا، وتعددت حلقات المدارس فى المساجد والساحات بجوارها فى أماكن كثيرة من بلاد العرب، وأطرافها من البلاد المفتوحة، وانقلب حال الأمة من أُمّيّة إلى مجتمع أصبح القادرون فيه على القراءة والكتابة من الكثرة والشيوع ما يُدهش.

---

* خبير معهد المخطوطات العربية ، مدير سابقًا.

(1) العقد الفريد، ابن عبد ربّه الأندلسي، تحقيق العريان، ط. الاستقامة، ١٩٤٠م، ٤/ ٢٤٢ .

(2) طبقات الأمم، صاعد الأندلسي، مطبعة السعادة بمصر، ص ٧٤ .

(3) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق السقا وآخرَين: ط. مصطفى الحلبي، ط. الثانية، ١٩٥٥، ٤/ ٤٧٨ .

ولم يمض على تلك البداية قرنٌ، وبعض قرن، إلا نجد إبداعات فى العلوم النقلية، تلاها إبداعات فى العلوم العقلية، على نحو ما سنشير إليه بعد قليل.

عوامل نجاح حضارة العلم والمعرفة

من هذا المدخل الذى مهدنا به حديثا، يلفت النظر هذا التألق الحضارى الذى يبعث على التساؤل: ما أسبابه، وما دواعى نجاحه؟.

إن الإجابة لتتصرف إلى حُزمة اجتمعت لدى هذه الأمة وهيَّأت لها الاشتغال بالعلوم المختلفة، وشاركت فى ركب الحضارة الإنسانية، وقدَّمت له منجزات حضارية ومعارف نعتز بها، دون أن نقدسها. وهى أسباب ودواعٍ تفيد عند الحديث عن فترة الهبوط والركود، والحال الذى بلغناه.

إن أول هذه الدواعى - أن الإسلام فى القرآن والحديث حثَّ على التعلم، والإقبال على المعرفة، وميَّز العلماء لما فيهم من فضيلة العلم والمعرفة.

وثانيها- انتشار أدوات الكتابة، وفى مقدمتها صناعة الورق الذى أعقبت صناعته مهنة الوراقة، وهى بمثابة دور نشر، تقطع الورق، وتبيعه، وتنسخ المخطوطات، وتراجعها وتصححها وتجلدها وتزخرفها وتذهبها وتبيعها.

وثالثها- نظام التعليم فى الإسلام، فقد كان التعليم، خاصة فى القرون الأولى، بالمجَّان، ولم يكن العَالِم يتقاضى عن تدريسه أجرًا، وكلهم كانت لهم مهنٌ يعتاشون منها، ونُسِبوا إلى هذه المهن؛ كالثعالبى والفرَّاء والزَّجَّاج، إلخ...

وشاع، غير إلقاء الدروس، أسلوب الإملاء على الطلاب بما يعنّ للعالم من علوم ومعرفة ارتجالا، دون الرجوع إلى مخطوطة بين يديه. ويجيب عن كل سؤال يُلقى عليه. وكان بعضهم يخصِّص أيامًا من الأسبوع للأمالى.

إن حلقات الدرس التى كانت تجرى فى المساجد والساحات المجاورة، كان ينمو فيها الحوار بين الشيخ وطلابه. وكان هذا باعثًا على خلق حركة علمية، وشيوع نهضة معرفية فى مختلف العلوم النقلية والعقلية التى تميزت الحضارة العربية الإسلامية بالتوازن بينهما؛ لم تطغ إحداهما على الأخرى.

ورابعها- اهتمام الخلفاء، وقوة سلطانهم على معرفة علوم الأوائل أو الأمم السابقة، كالإغريق والفرس والهنود، وبدء الاطلاع عليها بالترجمة التى نمت نموًا كبيرًا فى عهد الخليفة العباسى المأمون (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م). وهو الذى أسس فى بغداد «بيت الحكمة»

ودارَيْن للرصد الفلكى، وكان بيت الحكمة بمثابة مركز للترجمة والبحث العلمى المعرفى يتبعه مكتبة ضخمة للمصادر والمراجع، ونذكر أن المأمون نفسه مارس بعض النشاطات العلمية فى الفلك على آلات رصدية كبيرة ودقيقة.

إن ديانات هؤلاء الأقوام الذين أخذ عنهم العرب والمسلمون، لم تكن عائقًا عن أن ينهلوا من علومهم، وهم وثنيون، ولم تتحرَّج الأمة من هذه الاستفادة العلمية، وهم أقرب للإسلام منَّا اليوم.

وخامس هذه العوامل، الذى أعان على تفوق العرب الحضارى، ما عُرف عن الإسلام من تسامح وحرية رأى، ومعاملة طيبة للمواطنين الجدد، سواء الذين اعتنقوا الإسلام، أو بقوا على دياناتهم، فهذا التسامح، وهذه الحرية، جعلت المواطنين الذمّيين يشاركون فى بناء صرح الحضارة الجديدة، جنبًا إلى جنب مع العرب والمسلمين.

ونعرف دور السُّريان الفاعل - وهم على المسيحية - فى الترجمة من الإغريقية إلى السريانية، فالعربية. وابن المقفع الفارسى (ت ١٤٥هـ/ ٧٦٢م)، الذى بقى على مجوسيته، ولم يُسلم إلا فى أُخريات عمره، نقل كثيرًا من كتب سياسة الدول ونُظُمها، وسلوك الخلفاء وعدلهم، وكتب الأدب من الفارسية إلى العربية. وكان متقنًا لها، فصيحًا فيما يكتب، ويُذكر أسلوبه من الأساليب التى تحتذى.

وكذلك الأطباء فى العصر العباسى، كان عُظْمُهم من أصول فارسية. والبيرونى (ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) كان بجانب إتقانه العربية وانتصاره لها يعرف الهندية التى نقل منها علومًا متقدمة. وإن نسينا لا ننسى طائفة اليهود فى الأندلس الإسلامية، الذين عوملوا فيها بعدالة لم يشهدوها قبل العهد العربى الإسلامى، وكانت مشاركتهم بإزاء ذلك مشاركة فاعلة.

المخطوطات زاخرة بالمعارف المختلفة

من الطبيعى أن يلتفت العرب والمسلمون أول ما يلتفتون إلى القرآن الكريم والحديث النبوى، فألَّفوا فى علومهما، ومِثْلهما فى الفقه القائم على أحكام الشريعة الإسلامية السمحاء.

ثم توجهوا إلى لغتهم العربية لغة القرآن؛ فوضعوا نحوها وصرفها وبلاغتها وعروضها وطلائع معاجمها اللغوية. وألفوا كتبًا فى التاريخ وحوادث السنين. ومن علماء هذه العلوم المتميزين المبدعين: الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدى (ت ١٧٠هـ/ ٧٨٦م)؛ وسيبويه (تعنى بالفارسية: رائحة التفاح) (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٦م)، وهو من تلاميذ

الخليل الأفذاذ، وغيرهما كثير.

أما العلوم العقلية، أو العلوم البحتة والتجريبية، فقد كانت معارفهم فيها - كما قلنا فى صدر هذا الحديث - محدودة، فنمَّوْهَا بالترجمة عن الأمم الأخرى من ذوى الحضارات السابقة كالإغريق فى أوربا، والفرس والهنود فى المشرق، ولم تكن أديان أولئك الأقوام عائقًا عن أخذ العلوم عنهم.

من هذا التألق الحضارى، وزخم العلم والمعرفة، خلَّف الأجداد الأعلون ألوف المخطوطات. والمخطوط والمخطوطة: هو النسخة المكتوبة بخط اليد، قبل نشأة الطباعة. والجمع: مخطوطات وكتبت المخطوطات على مواد متعددة آخرها الورق الذى عرفه العرب فى العهد العباسى زمن أبى جعفر المنصور (ت ١٥٨هـ/ ٧٧٥م) وهو الخليفة الثانى، وبانى بغداد، فكانوا فى أيامه يأتون بالورق من سمرقند، فيما وراء النهر شرقًا، يصنعه صينيون كانوا يعرفون صناعته فى بلادهم، وكان ينقل على ظهور الإبل فى قوافل، وأُسِّس أوَّل مصنع للورق فى بغداد فى عهد هارون الرشيد (ت١٩٣هـ/ ٨٠٩م). ثم انتشرت صناعته فى بلاد العرب كلها إلى أن وصل الأندلس، فطوره الأندلسيون وحسَّنوه بإضافة الكُرسف (القطن) إليه، وعرفته أوربا منهم.

ونمت بتوافر الورق النهضة العلمية فى مختلف العلوم، وكثرت دكاكين الوراقة والورَّاقين، وبجوارها مكتبات صغيرة لبيع المخطوطات. كما كثرت المكتبات الخاصة والعامة التى تحتوى على مئات المخطوطات الزاخرة بالعلم والمعرفة.

انتشرت المكتبات فى عهد العباسيين فى بغداد، والأمويين فى الأندلس، والموحِّدين فى مرَّاكش، والحمدانيين فى حلب، وبنى عمار فى طرابلس الشام، والفاطميين فى مصر، وغير ذلك. وحسبنا أن نشير إلى أنه كان فى المكتبة الواحدة مئات النسخ من الكتاب الواحد، ولم يتوفَّر هذا العدد إلا لكثرة طلاب العلم والمعرفة والبحث.

ومع معرفة العرب للورق أنتجوا أنواعًا مختلفة من الحبر، ولدينا عدد غير قليل من مخطوطات تراثنا التى تبيِّن صناعتَه بألوانه المتنوعة، يُضاف إليه الصمغ لتثبيته على الورق، وحتى لا تنتشر الكتابة عليه.

وكتبوا بساق من الغاب، يُبرى بريًا مائلا، وتنوعت «القَطَّات» لتنوع الخطوط من نسخ وثلث ورُقْعَة وديوانى وفارسى ... إلخ.

وبالتالى عَرَف الأوربيون قدْر هذه المخطوطات وثراءَها بالعلم والمعرفة، فانتهزوا

فرصة غروب شمس هذه الحضارة، وتوقّفها عن العطاء فى أواخر القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى). وامتد هذا الانحدار والركود مدى أربعة قرون تقريبًا، جهل فيه أصحاب التراث قيمة المخطوطات، وشغلوا عن الاهتمام بالمصلحة العامة، وغرقوا فى السطحية والضحالة، وفقدوا روح التسامح، وضلّلهم التعصب، وكبتوا حرية الرأى، وألغوا نصف المجتمع بظلم المرأة، وسقطت من أيديهم راية العلم والمعرفة، وأصبحت معارفهم تخضع للخرافات والبُعْد عن نظر العلم والعقل.

وإبَّان هذه الفترة بدأ الاستعمار الأوربى باحتلال البلاد، و تهيَّأوا لنهضة شاملة، ونقلوا إلى بلادهم ألوفَ المخطوطات العربية إمَّا شراءً بأثمان بخسة أو استيلاءً. ودخلت أمريكا حَلْبَة اقتناء المخطوطات، والانتفاع بها فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (التاسع عشر والعشرين الميلاديين)، وحافظوا جميعهم على هذه المخطوطات، واعتنوا بها، ورمَّموها وجلدوها، وأصلحوا من شأنها، وانكبُّوا عليها اطلاعًا وانتفاعًا بعد خدمتها بالفهرسة والتحقيق والدرس.

امثلة على علوّ شأن هذه المعارف

كنَّا قد ذكرنا العوامل التى اجتمعت لنجاح هذه الحضارة، وبالتالى كان دور العرب والمسلمين الحضارى فاعلا ومؤثرًا، فلم يكتفوا بفهم علوم الأمم الأخرى عن طريق الترجمة، وإنما هضموا ما فهموه، وتمثلوه جيدًا، وبلغوا من العمق أن صححوا كثيرًا من أوهام العلماء الإغريق، مثل: جالينوس وبطليموس فى الفلك والرياضيات وغيرهما من العلوم، وطوَّر العرب هذه العلوم وأَتَوْا بجديدٍ أضافوه إليها طيلة تسعة قرون كاملة. وتُعدُّ هذه الحضارة الزاهرة من أطول الحضارات عمرًا فى التاريخ، واتسع مجالها من أفق الصين شرقًا إلى الأندلس غربًا.

وطبيعة العلوم - كما هو معروف - تراكمية، هذا يأخذ من ذاك، وهذا يضيف جديدًا. والإغريق أنفسهم أخذوا من أمم سابقة كالبابليين والآشوريين فى حضارة ما بين النهرين: دجلة والفرات، كما أخذوا من علوم مصر القديمة فى العهد الفرعونى.

أما تقدم هذه الحضارة فى العلوم النقلية، فقد كان - كما ذكرنا - ذاتيًا خالصًا، منبعثًا من القرآن الكريم، وإبداعهم فيها شاهد جلى على المشاركة الفاعلة فى ركب الحضارة الإنسانية.

وقد أقرَّ كثيرٌ من المستعربين المنصفين بما قدّمته هذه الحضارة من علم ومعرفة، عمّت حضارة أوربا الحديثة، وفى كتبهم التى أصدروها شواهد وإثباتات على علوّ شأن

هذه العلوم والمعارف التى جاءت بها حضارة العرب.

وحسبى - فى هذا المقام - أن أذكر أن أوربا - إبَّان نهضتها الحديثة - لم تعرف أرسطو إلا من خلال اطلاع ابن رشد الأندلسى الحفيد (ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) على مؤلفاته، ونقلها بالعربية، مع تعليق عليها ونقدٍ لها - ثم ترجمت إلى العبرية فى الأندلس، فاللاتينية لغة العلم والمعرفة آنذاك فى أوربا.

وحين نلتفت إلى النهضة الأوربية الحديثة Renaissance نتوجه إلى الشرارة الأولى التى أضاءت للأوربيين منهجهم لأخذ العلوم من حضارتنا ومعارفها الزاهرة. أعنى أنهم - بادئ ذى بدء - تعلموا من العرب طريقةً جديدة للبحث قائمةً على العقل، وكانت مباحثهم مستقلة عن كل تأثير، لا يحكمها إلا التجربة والبرهان. وبهذا الدرس الجديد استطاعت أوربا أن تخطو خطواتها الأولى فى سبيل النهضة.

وتبع هذا الدرس دروسٌ أخرى تمتد إلى الأخذ عن العرب فى علوم الفلسفة والطبيعة الفيزيائية والرياضيات. وكذلك امتدت إلى الصناعات والأدب وفن المعمار والموسيقى. على أن أبرز دور للعرب فى تكوين الفكر الأوربى، هو فى العلم بمختلف فروعه: الطب والطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات والتاريخ الطبيعى والفلاحة (الزراعة).

وبفضل هذا الإبداع العربى اشتهرت المقولة السائدة عن نهضة العرب وإنجازاتهم: «تكلَّم العلم بالعربية» وصادق على هذه المقولة بعض علماء الغرب فى القرن الثالث عشر الميلادى.

وأقتصر فى حديثى هذا على بعض الأمثلة، المتمثِّلة فى علماء أفذاذ قدَّموا إبداعات جليلة فى مجال العلوم والمعارف التى تزخر بها المخطوطات العربية:

- استطاع جابر بن حيَّان (ت ٢٠٠هـ/ ٨١٥م) أن يؤسس علم الكيمياء. وكان يعتقد أن الكيميائى يستطيع أن يُبدع أحجارًا ونباتات وحيوانات. وتصيبنا الدهشة لأنه قارب فى هذه الأفكار إلى تقنية الجينات الحديثة.

وله نظريات تثير الإعجاب فى الذَّرَّة؛ مما جعل أحد المستعربين يؤكد أن نظريات جابر حول الذَّرَّة تعادل مستوى نظريات القرن العشرين الميلادى. وعدَّه العالم والفيلسوف الإنجليزى «روجر بيكون» (ت ١٢٩٢م): «معلِّم العالم فى الكيمياء».

- محمد بن موسى الخوارزمى (ت نحو ٨٣٥م) الذى برز فى عصر «المأمون» والذى

تأثر بالهنود والفرس، وترجمت كتبه فى أوربا، وبفضلها عرف الأوربيون الصفر. وبفضلها أيضًا انتقل الحساب الهندى إليهم، وكذلك النظام العشرى فى الحساب. وعُرفت العمليات الحسابية باسم Alguarismo، ولمَّا انقطعنا عن تراثنا قرونًا، ترجمناها إلى اللوغاريتمات، وحُقَّ علينا ووجب أن نترجمها إلى «الخوارزميات» لأنها فى الأصل منسوبةٌ إلى الخوارزمى.

- للعرب الفضل فى فصل علم الجبر عن الحساب المعنىّ بالعمليات الحسابية الأربع، علمًا مستقلاً. وتقدموا إلى حل المعادلات من الدرجة الثانية إلى الدرجة الرابعة على يد محمد بن الحسن بن الهيثم (ت نحو ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) وغياث الدين الكاشى (ت ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م).

- اكتشف العرب حساب المثلث الكروى. واستطاع أبو الريحان البيرونى (ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) من هذا الاكتشاف استخراجَ درجات الأطوال والمسافات الطويلة على الكرة الأرضية.

- فى الهندسة: أول من جعل من حساب المثلثات علمًا خاصًا ومنظَّمًا هو نصير الدين الطوسى (ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م).

- البَتَّانى (ت ٣١٧هـ/ ٩٢٩م) حسب السنة بمقدار ٣٦٥ يومًا وخمس ساعات و ٤٦ دقيقة و٢٤ ثانية. والفلكيون اليوم يحسبونها بزيادة دقيقتين و ٢٣ ثانية. وهو فرق لا يُذكر. كما تنبأ الفلكيون العرب القُدامى بكسوف الشمس، وخسوف القمر، بدرجة من الدقة أذهلت الناس.

- فى الطب: بقيت أوربا عالة على الطب عند العرب لنحو ستة قرون. وكانت كتب الطب العربية يُتعلَّم منها بعد ترجمتها إلى اللاتينية، وكانت لتدريس الطب فى العصور الوسطى وبدايات النهضة وما بعدها.

وكان أبو بكر الرازى (ت ٣١٣هـ/ ٩٢٥م) تعرفه أوربا باسم Rhazes، واعتمدوا على كتابه الحاوى الذى يُعدُّ دائرة معارف طبية كبرى، وهو أول من استخدم فتيلة الجَرْح، وابتدع صُنْعَ الخيوط الجراحية من أمعاء الحيوان، وقد سُمِّيت بـ القُصَّاب catgut، وصنع حبات لعلاج العيون، كانت أوربا - فيما بعد - تتداوى بها، وسمَّوها بـ «أقراص الرازى».

ورئيس الأطباء فى عصره أبو على الحسين بن سينا (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م)، ويُعرف عند الأوربيين باسم Avicenne، وهو صاحب كتاب «القانون» فى الطب ذى المجلدات

الضخام، وتُرجم فى أوربا وكانوا يتعلّمونه فى مدارسهم الطبية.

وابن النَّفِيْس، علاء الدين (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، وهو أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى ما بين القلب والرئتين. وهو القائل: الحقُّ حَقٌّ فى نفسه، لا لقول الناس له.

وأبو القاسم الزهراوى الأندلسى (ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م)، صاحب كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» الذى ترجم إلى اللاتينية. وهو أول كتاب تفرَّد فى الجراحة علمًا مستقلاً قائمًا على علم التشريح.

والطبيب ابن زُهْر الإشبيلى (ت ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م)، هو الذى اكتشف جرثومة الجَرَب الطفيلية.

ـ فى علم البَصَرِيّات: نذكر العالم محمد بن الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)، الذى صنَّف كتاب «المناظر»، ووضع فيه اكتشافاته التى أصّلت هذا العلم. وكنا قد ذكرنا هذا العالِم فى تجليّات علمٍ آخر.

ـ عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، الذى وضع فى كتابه «المقدمة» أسس علم الاجتماع والعمران البشرى، وأخذت منه أوربا بذور هذا العلم وأُسسه.

ـ فى الفلسفة: كان ابن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) مؤثِّرًا فى الأوساط الفلسفية والفكرية الأوربية، وأخذ القدِّيس توما الأكوينى عن ابن رشد مذهبه فى النقل والعقل، أى الصلة بين العقل والوحى، أو النظر والإيمان، ونلحظ اتفاقًا بينهما فى كثير من المسائل.

ـ اهتم العرب، خاصة الأندلسيين، بالفلاحة، فوضعوا الكتب فى زراعة الفاكهة والخضراوات، وكتبًا فى الحدائق وتنسيقها. وقد أفادت أوربا من هذه الكتب المخطوطة بعد ترجمتها، فضلا عن احتكاكهم بالفلاحين المسلمين فى الأندلس والتعلُّم منهم. ومن أشهر المؤلفين ابن العوام الأندلسى فى كتابه «الفلاحة».

أما فى النباتات الطبية فمنهم أبو جعفر الغافقى وابن البيطار المالقى الأندلسى. وتحتفظ اللغة الإسبانية حتى اليوم بألفاظ عربية فى ميدان الفلاحة. كل هذا نُقل من إسبانيا إلى أوربا.

وما زالت المخطوطات العربية زاخرة بالعلم والمعرفة غير ما أخذه الأوروبيون منها. وليس صحيحًا أن الرجوع إلى المخطوطات العربية نافع لدروس تاريخ العلوم

حَسْب. وحسبى أن أذكر مثلين: أولهما - يؤكد هذه المعارف المفيدة حتى يومنا هذا. والثانى - يعيد الثقة فى نفوس العرب، خاصة الشباب منهم.

نعرف «كتاب الجوهرتين» لابن الحائك الهمدانى (ت ٣٤٤هـ/ ٩٤٥م)، الذى حُقِّق مرتين، وصدر منشورًا وهو يتضمن معلومات جيولوجية وتعدينية. ولمَّا رجعت إليه بعثة المسح الجيوفيزيائى الأجنبية لمعرفة موارد اليمن المعدنية والبترول، أفادت منه كثيرًا. وأدّت هذه المعارف إلى اكتشاف العديد من المناجم بكميات تجارية.

أما المثل الثانى، فقد كنت يومًا أقلب فى كتاب «المجالس والمسايرات»(١) للقاضى النعمان بن محمد (ت ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م)، أنظر فيه عن مظنة مسألة لبحث من بحوثى، وإذا بالعين تقع على شىء مدهش(٢)، وهو اختراع إمام الفاطمية المعز لدين الله (القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى)، قلما خَزَّانًا للحبر، يكتب به بلا استمداد من دواة، يكون مداده من داخله، يكتب به المرء متى شاء، ومتى شاء تركه فيرتفع المداد. ويكون القلم ناشفًا منه، يجعله الكاتب حيث يشاء، فلا يرشح شىء من المِداد عنه. وهى صنعة عجيبة سبقت بثمانية قرون أول قلم خزَّان عُرف فى أوربا.

وبعد، فإن مثل هذه المعارف الثَّرَّة التى نجدها فى بطون المخطوطات العربية لكفيلة ببعث همَّة الشباب المعوَّل عليهم للالتفات إلى التراث، والاشتغال به وخدمته فهرسة وتحقيقًا ودرسًا، بروح وثَّابة وخلاَّقة، لننتفع به أيَّما انتفاع، حينئذٍ نستحق أن ننتسب إليه، لأن الذى يحفظه جامدًا لا يستحق هذا الانتساب.

على أنه ينبغى أن يكون شعارُنا من شقّين متعادلين: التجديد مع التأصيل. نعود إلى الماضى لنبنى المستقبل، ونطوِّر مجتمعنا إلى مجتمع حديثٍ يؤمن بنمو المعرفة العلمية، والنظر إليها بعقلانية تامة.

---

(١) تحقيق الفقي وشبوح واليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. الثانية ١٩٩٧م.

(٢) ص ٢٨٩، وما بعدها.